# ظاهرتا التعبير بالكناية والتورية

# في لغة أبي العلاء المعرّيّ

## إعداد


## الدكتور محمّد طاهر الحمصيّ

**أستاذ مساعد في قسم اللغة العربيّة – كلّيّة التربية الأساسيّة – الكويت**



**إصدار يوليو لسنة ٢٠٢١م**

**شعبة النشر والخدمات المعلوماتية**

**مقدّمة:**

**الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسَلين وإمام المتّقين سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

**وبعد، فإنّ صلتي بأبي العلاء المعرّيّ، تعود إلى عقود سلفت، حين تخيّرتُ لرسالتي في (الماجستير) موضوعًا يقوم على دراسة لغة هذا العالم الجليل، فاقتضى ذلك أن يكون لكلّ من لغة أبي العلاء ونحوه وصرفه وعروضه نصيبٌ من تلك الدراسة. وتوثّقتْ من يومها صحبتي بهذا العَلَم الفذّ، وكان في هذه الصحبة الطويلة من المتعة مقدار ما كان فيها من المشقّة، ولكنّها كانت دائمًا مشقّةً متوّجةً بفوائد لا يستوعبها الحصر. وكان ممّا تقتضيه المودّة ويمليه الوفاء أن أعود إلى أبي العلاء بين الفينة والفينة، فأطوّف في آثاره، وأتملّى جوانبَ من إبداعه، ولعلّ ذلك كان سببًا في كتابة هذه المقالة التي أردتها أن تكون دراسةً لظاهرة الكناية وظاهرة التورية في لغته.**

**وممّا يحسنُ في البدء التعريجُ على تعريفٍ وجيزٍ بأبي العلاء المعرّي يوضّح جوانب من حياته وعلمه وثقافته وآثاره.**

**تعريف بأبي العلاء المعرّيّ:**

**هو أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرّيّ، العالم اللغويّ الشاعر، وُلِدَ في بلدة مَعَرَّة النعمان من نواحي حلب سنة ٣٦٣ هـ، وتوفّيَ فيها سنة ٤٤٩ هـ.**

**أصابه الجدريّ وهو طفلٌ لم يتجاوز الرابعة من عمره فأودى ببصره. ولئن كان هذا الطفل قد عميَ بصرًا لقد أضاءَ بصيرةً، فقد ظهر نبوغه مبكّرًا، فنظم الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة[١]، وتحدّث الناس بذكائه وتوقُّد خاطره وهو ما يزال صغيرًا يلعب مع الصبيان. وقد كان آيةً في الحفظ، لا يكاد ينسى شيئًا ممّا سمعه، وها هو ذا يقول عن نفسه: "ما سمعتُ شيئًا إلّا حفظتُه وما حفظتُ شيئًا فنسيتُه"[٢].**

**كانت حياته رحلةً مع العلم داخل بلدته المعرّة وخارجها. طلبَ العلم على شيوخ المعرّة، ورحل في سبيله إلى حلب وهو فتىً، وبعد أنْ وجد من نفسه المقدرة على التحصيل بمعزل عن الشيوخ رحل إلى دار العلم ببغداد أكبر مكتبة في عصره سنة ثمانٍ وتسعين وثلاث مئة، ومكث تُعْرَضُ عليها كتبها سنةً وسبعةَ أشهرٍ[٣]. ثمّ لزمَ بيته بعد ذلك يملي علمه على طلبة العلم حتّى آخر عمره. وإنّك لَترى فيه عالمًا متبحّرًا في كلّ فنٍّ متضلّعًا في كلّ بابٍ، بعيدَ الغَوْرِ عميقَ الفكرة ثاقبَ النظرة. وترى فيه إلى جانب ذلك شاعرًا مشرقَ العبارةِ طليَّ الأسلوب جميلَ النظمِ متوفّزَ الإحساس.**

**من آثاره الشعريّة: ديوا سقط الزند – ديوان لزوم ما لا يلزم. ومن آثاره النثريّة: رسالة الغفران – رسالة الصاهل والشاحج – عبث الوليد (في شرح شعر البحتريّ) – معجز أحمد (شرح فيه شعر المتنبّي) – اللامع العزيزي (شرح شعر المتنبّي) – ذكرى حبيب (شرح شعر أبي تمّام) – رسالة الملائكة – الفصول والغايات.**

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء: ١٨، ١٤٤، ١٨٤، ٥٥١.
(٢) تعريف القدماء: ٢٢٤، ٥٥١.
(٣) تعريف القدماء: ٥٤٤.

**يُعَدُّ أبو العلاء نموذجًا ممتازًا للمثقَّف في عصره، فقد أخذ من كلّ علمٍ بطرف، وتبحَّرَ في فنون عديدة، فكان أديبًا مُجيدًا وشاعرًا مبدعًا ولغويًّا ماهرًا. وقد شهد له بذلك كلُّ من ترجمَ له من معاصريه وغيرهم.[٤]**

**ويجدر بنا أن نقول: إنّنا نظلم أبا العلاء حين نقدّمه إلى الأجيال شاعرًا فحسب. ذلك أنّنا عندما نطّلع على آثاره لا نكاد نرى فيها إلّا صورة العالِم الأديب، حتّى إنّ شعره لَيفوح بعبق العلم حيثما نظرتَ فيه، ومن أجل ذلك نعته أصحاب كتبِ التراجم بالعالِم وباللغويّ الحاذق. قال عنه ياقوت الحمويّ في (معجم الأدباء): "كان غزير الفضل شائع الذكر وافر العلم غايةً في الفهم عالِمًا باللغة حاذقًا بالنحو جيّدَ الشعر جزلَ الكلام".[٥]**

**وقال عنه ابنُ حجر في (لسان الميزان): "اللغويُّ الشاعرُ المشهور، كان عجبًا في الذكاء المُفْرِطِ والاطّلاع على اللغة".[٦]**

**وقال عنه العبّاسيّ في (معاهد التنصيص): "كان اطّلاعه على اللغة وشواهدها أمرًا باهرًا".[٧]**

**ووددتُ في هذه المقالة أنْ أطْلِعَ القارئَ على ظاهرتين فاشيتين في تعبيره، إنْ في شعره وإنْ في نثره، وهما التعبير بالكناية والتعبير بالتورية.**

---

(٤) انظر ترجمته في معجم الأدباء وفي وفيات الأعيان وفي مسالك الأبصار وفي لسان الميزان وفي معاهد التنصيص.
(٥) معجم الأدباء ١: ٢٩٥.
(٦) لسان الميزان ١: ٥١١.
(٧) معاهد التنصيص ١: ١٣٨.

## أولًا – التعبير بالكناية

**تعريف الكناية: لغةً واصطلاحًا وذكر بعض خصائصها.**

**الكنايةُ لغةً: أنْ تتكلَّمَ بشيءٍ وتريد غيره. قال قيس بن ذَريح:**

**فإنْ خفتُ ظَنَّ الناسِ أنْ يَفطنوا لنا صَرَفْتُ نشيدي عنكمُ وكَنَيْتُ**[٨]

**الكنايةُ اصطلاحًا: لفظٌ أريدَ به لازمُ معناه مع جواز إرادة معناه الأصليّ.**

**ومن الكنايات المشهورة في كتب البلاغة: رفيعُ العِماد (كناية عن صفة السيادة أو الزعامة) وطويلُ النجاد (كناية عن صفة طول القامة) وكثير الرماد (كناية عن صفة الكرم). ولكلّ من هذه الكنايات معنيان أحدهما المعنى اللغويّ الأصليّ – وهو غير مراد مع جواز إرادته – والآخر معنى مستنبَط بالفهم وهو المراد.**

**الكناية والبيئة الاجتماعيّة والثقافيّة:**

**الكناية هي ابنةُ بيئتها الاجتماعيّة من أعرافٍ وتقاليدَ وقيمٍ، وابنةُ بيئتها الثقافيّة والعلميّة. ولا بدّ لفهم الكناية من أن يحتكم المتكلّم والمتلقّي إلى منظومة واحدةٍ من القيم والأعراف والتقاليد، وينتميا إلى مرجعيّةٍ ثقافيّة واحدة. فمن لا يعرفْ حياة البادية – وكيف كان بيت الشَّعر يُرفَع على أعمدة – لا يعرفْ حقيقة قولهم: (فلانٌ رفيع العماد)، كنايةً عن كونه زعيمًا أو سيّدًا في قومه. ذلك أن بيت زعيم القبيلة كان أكثر ارتفاعًا من بيوت أبناء القبيلة مما يقتضي أن يكون عمود بيته أرفع من أعمدة البيوت الأخرى. وكذلك لا يعرف مُؤَدَّى قولهم (فلانةُ نَؤومُ الضُّحا) إلّا مَنْ عرف حياةَ العرب أهلِ الشاءِ وكيف كان من واجب المرأة عندهم أن تنهض باكرًا لحلب الشياه والقيام بأعمال كثيرةٍ أخرى إلّا أن تكون امرأةً منعَّمةً عندها من يقوم بذلك كلّه بدلًا منها.**

---

(٨) الإبانة في اللغة العربيّة ٤: ١٥٤ والبيت ليس في ديوان قيس بن ذريح.

## الكناية في لغة المعرّيّ:

لا يكاد المعريّ يذكر الأشياء بأسمائها، وإنّما يعدل عن ذلك إلى كنايةٍ تهدي إليها أو كنية تقوم مقامها، ومن هنا فقد غدت الكناية في شعره ونثره ظاهرةً لا يُخطئُها النظر. وهاهي ذي نماذج من كناياته الشعريّة.

١ – الكناية بالدلالات اللغويّة:

ومأكولةِ الأغمادِ مُرهَفَةِ الظُّبَى  بَراها قِراعٌ دائمٌ وصِقالُ[٩]

مأكولة الأغماد: كناية عن السيوف القديمة التي اهترأتْ أغمادها لكثرة استعمالها في المعارك.

٢ – الكناية بأسماء الكتب:

حَبَستَ كتابَ العينِ في كلّ وجهةٍ  فخُذْ حذَرًا مِنْ تَرجُمانِ المُفَجَّعِ[١٠]

كتاب العين: كنى باسم معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيديّ عمّا تراه العين ممّا يُكْتَب.

تَرجُمان المُفَجَّع: كنى باسم كتاب الترجمان – وهو كتاب في معاني الشعر – عن اللسان، وبالمُفَجَّع العالمِ اللغويّ البِصْرِيّ عن القلب.

٣ – الكناية بالكُنْيَة:

وَقَفْتَ على كلِّ بابٍ رأيـ.....ـتَ حتّى نَهاكَ أبو ضابِطِ[١١]

أبو ضابط: كناية عن الموت.

---

(٩) ديوان سقط الزند: ١٦٤

(١٠) ديوان اللزوميّات ٢: ١٣٧. كتاب العين: للخليل بن أحمد الفراهيديّ. كتاب الترجمان في الشعر: للمفجَّع البصريّ.

(١١) ديوان اللزوميّات ٢: ١١٠

**٤ – الكناية بالمعارف الصرفيّة والنحويّة:**

**إذا غَدَوْتَ عن الأوطانِ مُرْتَحلًا  فَضاهِ في البينِ حَذْفَ الواوِ مِنْ يَعِدِ[١٢]**

**حذف الواو مِن يَعِد: كناية عن ملازمة فراق الأوطان بعد الرحيل عنها.**

**ومن ذلك قوله:**

**تَزَوَّجْ إنْ أرَدْتَ فتاةَ صِدقٍ  كَمُضْمَرِ (نِعْمَ) دامَ على الضميرِ[١٣]**

**مُضْمَرِ (نِعْمَ): هو فاعل (نِعْمَ) عندما يكون ضميرًا مستترًا مُفَسَّرًا بتمييز، واستتاره حينئذٍ واجبٌ. وهو كنايةٌ عن ملازمة الاستتار، فتلك الفتاة التي ينصح أبو العلاء بالزواج منها مستترةٌ في بيتها كاستتار فاعل (نعمَ)عندما يكون ضميرًا.**

**٥ – الكناية بالمعارف العروضيّة:**

**فَمَنْ لي بأرضٍ رَحبةٍ لا يَحُلُّها  سِوايَ تُضاهي دارةَ المُتَقارِبِ[١٤]**

**دارةُ المتقارِب: هي إحدى دوائر الخليل بن أحمد العروضيّة، وهي التي ينفكّ منها البحر المتقارب. وهو مستقلٌّ لا يُشْرِكه فيها سواه. فدارة المتقارب كناية عن المكان الخالي إلّا منه.**

**وقد بلغ من شغفه بالكناية في كتابه الفصول والغايات[١٥] أن آثَرَها على الأسماء المعهودة حتّى يُخَيَّلَ للمرء أحيانًا أنّه قد نسيَ تلك الأسماء، أو تناساها، فالخبزُ لديهِ (أبيضُ حُرّ)، والذبابُ**

---

(١٢) ديوان اللزوميّات ١: ٣٧٨
(١٣) ديوان اللزوميّات ١: ٥٥٨
(١٤) ديوان اللزوميّات ١: ١٧٣
(١٥) كتاب الفصول والغايات للمعرّيّ من آثاره النثريّة الغنيّة، وسنتّخذه مصدرًا للكنايات التي نمثّل بها.

(هَزِجُ النهار)، والسحابُ (جارُّ الضبعِ)، والليلُ (ذو الطرّتين)، وفاسدُ العقل (مُتهدِّمُ الجُول)، والأرانبُ (مُقَطِّعاتُ السُّحُور)[١٦] .....

أبيضُ حُرٌّ: كناية عن الخبز.

هَزِجُ النهار: كناية عن الذباب. "طُوبَى للمترنّمين بالتسبيح تَرُنُّمَ هَزِجِ النهار".

جارُّ الضبع: كناية عن المطر الشديد. لأنّه يجرّ الضبع فيخرجها من وجارها. "ولو أصابني جارُّ الضبع ما غَسَلني من الذنوب".

مُقَطِّعاتُ السُّحُور: كناية عن الأرانب. السحور: جمع سَحْر، والسَّحْرُ الرئة.

مُتَهَدِّمُ الجُول: كناية عن فاسد العقل. الجُولُ: جدارُ البئر وجانبُهُ.

نصّان من الفصول والغايات

"ما أكرمَكَ رَبَّنا! خلقتَ كاعبًا يُمسي قُلْبُها شَرِقًا وقُرْطُها مُرْتَعِدًا، وأخرى تحتطبُ لأهل الصِّرْمِ تَرَكَتِ العِضاهُ طِمْرَيْها قِدَدًا".[١٧]

القُلْبُ: السِّوار. شَرِق: ضيّق، وهذا كناية عن امتلاء المعصمين. ارتعاد القُرْط: اضطرابه، كناية عن طول العنق. العِضاهُ: الشجرٌ ذو الشوك. الطمران: الثوبان الباليان. القِدَد: القِطَع. وذلك كناية عن كثرة حملها أغصانَ الشجر ذي الشوك وعنائها.

"أُقسِمُ بخالق الخيل والعيسِ الواجفةِ بالرُّحَيلِ، تَطلُبُ مواطِنَ حُلَيْلٍ، والريحِ الهابّةِ بلَيْلٍ، بينَ الشَّرَطِ ومَطالِعِ سُهَيْلٍ، إنّ الكافرَ لَطويلُ الويلِ، وإنّ العُمرَ لَمكفوفُ الذيلِ".[١٨]

---

([١٦]) انظر الفصول والغايات: ١٦٩-٢٧٧-٢٨٢-٢٨٣- والصاهل والشاحج: ٨٣- ورسالة الملائكة: ١٧. الجُول: جدار البئر وجانبه. السُّحُور: جمعُ سَحْرٍ، والسَّحْرُ: الرئة.
([١٧]) الفصول والغايات: ١٩٧
([١٨]) الفصول والغايات: ٢٥٣

**الواجفة: المسرعة. الشّرَط: نجم. خالق الخيل: كناية عن الله عزّ وجلّ. طويل الويل: كناية عن المُعَذَّبٌ عذابًا شديدًا. مكفوف الذيل: كناية عن القِصَر.**

**تعدّد الكنايات عن الاسم الواحد:**

**تتعدّد الكنايات عن الاسم الواحد في كلامه وتتنوّع كناه:**

**فاللهُ تعالى: باسطُ الأمل، ومحصي العمل، وحافظُ الهَمَلِ، وواهِبُ الحواسِّ، وخالقُ الجوهرِ والعرَض.[١٩]**

**والإبلُ: ذواتُ السَّنامِ، وبناتُ العيدِ، وذَواتُ الرَّسيمِ.[٢٠]**

**والذئبُ: مُرَوِّعُ الشَّوِيّ، وأبو مَذْقَةٍ، وأبو جَعْدَةٍ.[٢١]**

**والأسد: ذو زُبْرَة، ودارِعُ لِبَدٍ، وحَبِيلُ بَراحٍ.[٢٢]**

**والحيّةُ: ذاتُ الكَشيش، وذاتُ الرَّبَدِ، وبِنْتُ طَبَقٍ، وابنةُ الجبلِ، وأمُّ العُثمان، وأختُ الصلِّ.[٢٣]**

---

([١٩]) الفصول والغايات: ٣٣٨-٤٤٦-٤٦٠

([٢٠]) الفصول والغايات: ١٨٢-١٨٩-٢٨٧ العيد: فحلٌ مُنْجِب يقال له: عيد. الرسيم: ضربٌ من سير الإبل.

([٢١]) الفصول والغايات: ١٣٠-٣١٥-٣٦٠-٤٤٩. الشويّ: الغَنَم. المَذْقة: الشربة من اللبن الممزوج بالماء، ويُشَبَّهُ لون الذئب بلونها لأنّ لونها يضرب إلى الغُبْرَة. الجَعْدَة: الشاة.

([٢٢]) الفصول والغايات: ١٦٨-١٩٨-٢٨١. الزُّبْرَة: الشعر بين كتفي الأسد. حبيلُ بَراح: كأنّه مربوط بحبلٍ في الأرض الواسعة، وذلك لأنّ الأسد يثبت في مكانه ولا يفرّ عند رؤية الناس.

([٢٣]) الفصول والغايات: ٨٣- ١٢٩-١٤١-٢٦٢-٣١٤-٣٦٤-٣٨٠. الكشيش: صوت الحيّة إذا حكّت جلدها بعضه ببعض. الرَّبَد: اللون الأسود يضرب إلى الغُبْرَة. بنت طبق: الحيّة إذا استدارتْ والتفّتْ كانت كالطبق. العثمان: فرخ الحيّات.

**نوعا الكناية عند المعرّيّ:**

**يمكن تصنيف الكنايات عند المعرّيّ في نوعين:**

**أ – الكناية المحفوظة (الموروثة):**

**ثروةُ المعرّيّ اللغويّة يعرفها كلُّ مَنِ اطّلَعَ على آثاره، فالرجلُ على ما ذُكِرَ من أخباره، وما تَشهدُ به آثاره، كان كثيرَ المحفوظِ قليلَ النسيان. ويبدو أنّه لم يجانب الحقّ عندما قال:**

**"ما سَمِعتُ شيئًا إلّا حفظتُه، وما حفظتُ شيئًا فأُنسيتُه".**

**ولا تكاد الكنايات التي حفظها واستعملها تُحصَى، وهو كثير الإشارة إلى أصولها وإلى طريقة العرب في استعمالها، وكثيرًا ماكان يتّخذها وسيلةً إلى الشرح والتفسير والاستشهاد لها بما يحفظه من كلام العرب وشعرها. وإليك عددًا من كناياته الموروثة:**

**ذنَبُ السِّرْحان: الفجر الكاذب.[٢٤]**

**عقيلةُ الملح: الدرّة.[٢٥]**

**ذاتُ العرش: كناية عن الثريّا.[٢٦]**

**بناتُ مَخْرٍ: ضربٌ من السُّحب غزيرات المطر، يكُنَّ قَبَيْلَ الصيف. يقول أبو العلاء في تفسير هذه الكناية:**

**" ويُستعمَل (بنات مخر) بغير ألف ولامٍ معرفةً، قال الشاعر:**

**كأنّ بناتِ مخرٍ رائحـــــاتٍ جنوبُ وعيشُها الغضّ الرطيبُ**

**جنوب: اسم امرأة. وأدخل عليها طرفة الألف واللام، فقال:**

---

(٢٤) الفصول والغايات: ١٠.
(٢٥) الفصول والغايات: ٣٣١.
(٢٦) الفصول والغايات: ٣١٥.

كبنات المخر يَمأَدْنَ إذا أنبتَ الصيفُ عساليجَ الخَضِرْ

ويروى: الخُضَرْ. ويمأدنَ: من قولك: غصنٌ مأدٌ أي ناعمٌ ...."[٢٧]

الجيب: كناية عن الصدر.

" اعتمدْ على ذي وجهين، ما عُرِفَ قَطُّ بالمَيْن. لو كانَ رجلًا لَكانَ ناصِحَ الجَيْبِ، قَلّما خشيَ من العيب".

ثمّ يُعَقِّبُ بالتفسير، فيقول: " ناصحُ الجيب: كناية عن الصدر، لأنّ الجيب يكون عليه وقريبًا منه، ويقال في ضدّه: جيبُ فلانٍ غيرُ ناصحٍ، قال الشاعر:

وقد رابَني ألّا يَزالُ يَريبُني دُنَوُّكَ ممّنْ جيبُه غيرُ ناصِحِ"[٢٨]

أبو سَريع: كنية العرفج، وهو نبات بريّ، إذا يبس كان سريعَ الاشتعال.

وذكره في معرض قوله مخاطبًا النفس:

"ليس لكِ يا ظالمةُ نصيح ... إنّما أنتِ كأبي سريعٍ، فالثناءُ على رَبّكِ ثناء البليغِ.....".

ثمّ يفسّر هذه الكُنيةَ، فيقول: " وأبو سريعٍ: نارُ العرفجِ، وهو سريعُ اللهَبِ سريعُ الانطفاء، قال الراجز:

لا تَعدِلَنَّ بأبي سَريعِ / إذا غَدَتْ نكباءُ بالصقيعِ".[٢٩]

ويمضي على هذه الطريقة، يفسّر كناياته الموروثة، ويستشهد لها من كلام العرب. وربّما ذكر الكناية المنقولة عن العرب في سياق شروحه اللغويّة، فيتلبّث عندها بالتوضيح والاستشهاد، ومن أمثلة ذلك قوله يشرح معنى (دائرة الرأس):

---

([٢٧]) الفصول والغايات: ٣٤٧.
([٢٨]) الفصول والغايات: ٢٨٩-٢٩٠.
([٢٩]) الفصول والغايات: ٣٧١.

" والدائرة شعرٌ مستديرٌ في الرأس، يقال: فلانٌ لا تقشعرُّ دائرته كما يقولون: هو مطمئنّ الهامةِ إذا وصفوه بالشجاعة. قال أبو النجم:

تُؤْنِسُهُ دائرةٌ لا تَفزعُ / عندَ اللقاء وخطيبٌ مِسْقَعُ"[٣٠]

وللمعرّيّ مقدرةٌ فائقةٌ على التكيّف بالمحفوظ لا تقلّ عن مقدرته على الابتكار والإبداع، إذ يجعل من محفوظه ومبتكره وحدةً تعبيريّةً ذاتَ لحمةٍ متينة تشهد لصاحبها بالتمثّل الكامل للموروث.

ولا شكّ أنّ كثرة الكنايات الموروثة في لغة المعرّيّ تمثّل مظهرًا من مظاهر ثقافته اللغويّة، وتمثّل أيضًا وسيلةً للانتقال إلى التفسير والشرح، وتُوافقُ من جانبٍ آخر نزعته التعليميّة.

لقد كان المعرّيّ يُملي مؤلّفاته على تلاميذه إملاءً، وكان في أثناء ذلك عرضةً لأسئلة تلاميذه عمّا يُمليه، وهكذا ترسّخت في نفسِه نزعةٌ تعليميّةٌ لم تفارقه قطّ، فقد لزمَ بيته نحوًا من أربعين سنةً، كان بيته طَوالَها مَأمًّا لطلبة العلم ومَحَجًّا لروّاده، فلا غروَ بعد ذلك أن يكون كثيرَ التفسير لما أملاه في (الفصول والغايات) وفي غيره من كتبه. فكلّ فقرةٍ في الفصول والغايات يتلوها تفسير للغريب وللكنايات وللاصطلاحات وللأعلام وللأمكنة ولأيّام العرب وللأنواء ولغير ذلك، ومعظَمُ تفاسيره مشفوع بالاستشهاد من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو شعر العرب.

وهكذا غدتْ مؤلّفاته ذخيرةً لغويّةً وأدبيّةً بالمعنى الواسع لكلمة الأدب.

### ب – الكناية المُبتكَرة:

هي وليدة قريحة المعرّيّ وذهنه المتوقّد وإحساسه المُرْهَف وثقافته الواسعة بالعربيّة. لقد رضع المعرّيّ لَبانَ العربيّة صبيًّا ويافعًا وكهلًا، ووعاها اطّلاعًا وحفظًا وبحثًا، فانثالتْ على لسانه أصالةً وحيويّةً وابتكارًا. وهذا ما يفسّر تلك الظاهرةَ العامّةَ عنده، وهي التمسّك الشديد بالأصول،

(٣٠) الفصول والغايات: ٤٦٦.

والحيويّة الدفّاقة النامية التي تصل في أكثر الأحيان إلى الإبداع والابتكار. وبعد النظر والإمعانِ في المُبتكَر من كناياته أمكنني أن أثبتَ لها السمات الآتية:

١- الإيجاز:

إذْ هي في الأعمّ الأغلب لا تزيد الواحدة منها على كلمتين، تجمع بينهما علاقةُ الإضافة أو التقييد بالصفة أو بالمعمول. مَحِّصْ ما شِئْتَ من هذه الكنايات تجدْ أنّ الإيجاز فيها قلّما يَتَخَلَّف، وتجد أنّكَ أمام كنايات من هذا القبيل.

الدافع سَغَبًا: كناية عن الآكل.[٣١]

ناسِجةُ الغُبار: كناية عن العنكبوت.[٣٢]

أخو النعيب: كناية عن الغُراب. والنعيب: صوته.[٣٣]

قُلْبُها شَرِقٌ: كناية عن امتلاء المعصمين. والقُلْبُ: السِّوارُ.[٣٤]

قُرْطُها مُرْتَعِدٌ: كناية عن طول عُنقِها. مُرتَعِد: مُضطَرِب.[٣٥]

هَزِجُ النهارِ: كناية عن الذباب.[٣٦]

ذواتُ الرَّسِيمِ: كناية عن الإبل. والرسيم: ضربٌ من سير الإبل.[٣٧]

مُرَوِّعُ الشَّوِيّ: كناية عن الذئب. والشَّويّ: الغنَم.[٣٨]

حَبِيلُ بَراحٍ: كناية عن الأسد.[٣٩]

---

([٣١]) الفصول والغايات: ٦٠.
([٣٢]) الفصول والغايات: ٩٣.
([٣٣]) الفصول والغايات: ١٨٢.
([٣٤]) الفصول والغايات: ١٩٧.
([٣٥]) الفصول والغايات: ١٩٧.
([٣٦]) الفصول والغايات: ١٦٩.
([٣٧]) الفصول والغايات: ٢٨٧
([٣٨]) الفصول والغايات: ١٣٠.

**مناسِبُ الميّت: كناية عن النائم.**[٤٠]

**البيتُ المحفور: كناية عن القبر.**[٤١]

**فارِسُ الأعواد: كناية عن الميّت.**[٤٢]

**أسِرّةُ الهالكين: كناية عن النعوش.**[٤٣]

**ولا شَكَّ أنّ هذا الإيجاز يُكْسِبُ الكنايةَ خِفّةَ الظلّ، فلا يَجهدُ اللسانُ في التعبير عن مفهوم وجيزٍ بألفاظٍ عديدة، ولا تضيقُ النفسُ بالمفارَقة التي يمكن أن تنشأ من ضآلة المضمون وعِظَمِ الشكل.**

**٢- الوضوح:**

**تُفصحُ كنايات أبي العلاء المبتكرة عن نفسها، ولا تحتاج إلى إطالة نظرٍ وكَدِّ ذهنٍ لمعرفة وجهها. فقد نظر المعرّيّ بعين الذكاء، فأدارَ الكنايةَ حولَ المَكْنِيّ عنه، ولم يَطْمِسْ ذلك الخيطَ الدقيقَ بينها وبينه. فقد لَفَتَ نَظَرَه طنينُ الذبابِ بالنهار دون الليل، فكنى عنه بـ(هَزِجِ النهارِ)، واختارَ من الإبل سَيْرَها المعروفَ بالرَّسيمِ فدعاها (ذواتِ الرسيم)، ولاحَظَ أنّ ما يُمَيّزُ القبرَ من البيت كَوْنُهُ محفورًا فعبّر عنه بـ(البيت المحفور) .....**

**ومِن شأن هذه العلاقةِ الثابتةِ المميّزة بين المكنيّ عنه والكناية أنْ تجعلها جليّةَ الدلالة واضحةَ المَرمَى.**

---

(٣٩) الفصول والغايات: ٣٨١.
(٤٠) رسالة الصاهل والشاحج: ٥٧.
(٤١) الفصول والغايات: ٢٥٥.
(٤٢) الفصول والغايات: ٣٣٣.
(٤٣) الفصول والغايات: ٧٩

**٣- الإيحاء الغنيّ:**

**تتجلّى بها براعةُ المعرّيّ في اختيار ألفاظ كناياته ومقدرتُه على صوغ هذه الألفاظ وتلوينها بألوان نفسيّةٍ خاصّة تبثّ فيها الحياة، ممّا يُضفي عليها ثوبًا من الحيويّة والطرافة، حتّى يبدوَ لقارئه أنّه الفارسُ المُجلّي في هذا الميدان. فالخبزُ (أبيضُ حُرٌّ) إذْ يحفظُ ماء الوجه ويصونه عن ذلّ المسألة وعبوديّة الحاجة. والنائمُ (مُناسبُ المَيت) إذْ يُصهِرُ إليه بهجرِه العالَمَ المحسوس. والجيداءُ من النساءِ (قُرْطُها مُرْتَعِدٌ)، يضطرب عند تحريك العنق اضطرابًا بيّنًا يُشبه اضطراب الخائف كنايةً عن طول العنق. ألا ترى كيف بثَّ المعرّيّ في كنايته هذه روحًا وحركةً وشعورًا حين ضَمّنها استعارةً جميلةً إذ استعار الخوفَ والارتعادَ للقُرط. ثمّ تأمّل كنايته الأخرى، وهي قوله (قُلْبُها شَرِقٌ) كنايةً عن ممتلئة المعصمين، ترَ تلك البراعة في اختيار ألفاظ كنايته، فكلمة (شَرِق) من قولهم: شَرِقَ بالماء أو الطعام إذا غَصَّ بالشَّرْبَةِ أو باللقمة، وهذه الكلمةُ هي التي منحت الكناية الحيويّةَ والحركةَ، فمعصم هذه المرأة يغَصُّ بالسِّوار لِبَضاضَتِهِ كما يَغَصّ حلقُ الإنسان بالماء أو الطعام، ولك الآن أن تتصوّر عمليّة إدخال المعصم في السوار، وما تتطلّبه من جهدٍ وعناء.**

**ولا يخفى ما يحمله مثل هذه الكنايات من الطرافة التي تستمدّ وجودها وتعتمد في خلودها على هذا الإيحاء النفسيّ للتركيب.**

**٤ – الاتّكاء أحيانًا على المعارف النحويّة والصرفيّة والعروضيّة:**

**يعمد أبو العلاء إلى توظيف معارفه النحويّة والصرفيّة والعروضيّة في بناء بعض كناياته، على شاكلة ما نراه في هذا النصّ من الفصول والغايات:**

**"رَبِّ لِأَكُنْ بين عبادِكَ كحرف الضمير، نابَ عن الأطولِ وهو قصير، ولْأُوجَدْ بينهم كأحد حروف اللينِ، لستُ على خَلْقٍ بثقيل. ولْتُصبحْ يدي بما أملك منبسطةً كانبساطِ الضربِ الأوّل من الطويل، وكفُّ الباطلِ عنّي مقبوضةٌ كقبضِ عَروضِ هذا الوزن الذَّكير، وفمي بتسبيحك يُحسَبُ ماضيَ فعلٍ فُتِحَ فتحًا غير مستحيل، ودموعي من خوفك منحدراتٌ".[٤٤]**

**حرف الضمير: كناية عن الخفّة والوجازة مع عِظَم الفائدة.**

---

([٤٤]) الفصول والغايات: ٢٩.

حروف اللين: كناية عن اللطف وخفّة الظلّ.

الضرب الأوّل من الطويل: هو (مفاعيلن). وهو كناية عن الانبساط في اليد إلى الحدّ الأقصى..

عروض الطويل: هي مقبوضة دائمًا (مفاعلن)، والقبضُ: حذف الخامس الساكن من التفعيلة. وهي كناية عن استمرار انقباض الكفّ.

الفعل الماضي المفتوح: كناية عن استمرار فتح الفم بالتسبيح.

وحرف الضمير هو الهاءُ وغيرها، ينوب عن أطول الأسماء. وأحرفُ اللينِ أخَفُّ الحروف في النُّطق، والحقيقةُ أنّ المقصود بحروف اللين الخفيفة في النطق حرفان هما الواو الساكنة بعد فتح نحو (ضَوْء)، والياء الساكنة بعد فتح نحو (عَيْن)، ولكنّه ذكرهما بصيغة الجمع على التسامح وعلى جواز معاملة الاثنين معاملة الجمع.

والضرب الأوّل من الطويل هو (مفاعيلن) لم يلحقه القبض (وهو حذف الخامس الساكن) كما لحقَ عَروضه (مفاعلن). فعروض البحر الطويل مقبوضةٌ دائمًا.

والماضي المفتوح فتحًا غيرَ مستحيل أي غيرَ متحوّل هو الماضي المتّصل بألف الاثنين، فإنّه لا يتحوّل عن الفتح إلى الضمّ أو السكون.

وبعدُ، فإنّ ظاهرة التعبير بالكناية في لغة المعرّيّ تستند – فيما أعتقد – إلى أصولٍ أكثرَ غورًا في شخصيّة المعرّيّ وتكوينه. ولَعلّ من هذه الأصول:

### ١ – القدرة التصويريّة:

وهذه القدرةُ ملكةٌ أوتيها المعرّيّ، وهي من خصائص شاعريّته، فليس بمستكثَرٍ على هذه النفس الشاعرة أن تلجأ إلى هذه الصورة الفنّيّة للتعبير عن المعاني التي تريد، فما هذه الكنايات التي ابتدعها إلّا صدىً لموهبته الشعريّة واستجابةٌ حتميّةٌ لها.

**٢ – الاعتدادُ بالمقدرة اللغويّة:**

**إنّ حذقَ المعرّيّ للّغة وتبحّرَهُ فيها واستظهارَه ألفاظَها وشواهدَها، رسّخَ في نفسه شعورًا بالاعتداد بالنفس، بلغَ حدَّ الاجتراءِ على اللغةِ والاتّساعِ فيها بتجاوز حدودِ المنقول منها، وآيةُ ذلك كثرةُ ابتكاره للكنايات. بيدَ أنّ هذا التجاوز لم يكن قفزًا فوق اللغة، وإنّما كان إغناءً لها ومَدًّا لبساطها بما يوافق طبيعتها ويوائم مذاهب العرب فيها. وهو حين يبتدع كناياته إنّما يقدّم جديدًا يحتمل القبولَ وغيره، وهذا شأن الجديدِ دائمًا. ولهذا كان ذلك الجديد محتاجًا من المعرّيّ إلى قدرٍ غير قليلٍ من الاعتداد بالمقدرة اللغويّة.**

**٣ – اعتيادُ التلميح دون التصريح:**

**ثمّة جانبٌ في تكوين نفسِ أبي العلاء هو التوجّسُ من المجتمع، ولا ريبَ أنّ لآفة العمى أثرًا في ذلك، فهو يُرَى ولا يَرى، ويُعْلَمُ منه كلُّ ما تبديه ملامح وجهه وهيئته، وهو لا يعلمُ شيئًا من ذلك على هيئاتِ من يلقاهم ويلقَوْنَه، فكان لذلك أثره في الحذر من مجتمعه إلى الحدّ الذي جعله يعتادُ الخشيةَ من مصارحته بما يعتمل في نفسه، اسمعه يقول:**

**آهٍ لأســـرار الفـــؤادِ غواليًا  في الصدر أستُرُ دونَها وأُجَمجِمُ[٤٥]**

**وقد طُبِعَتْ نفسُه بسبب من ذلك على التلميح دون التصريح وعلى التعريض دون المكاشفة، وكانت التورية والإلغاز بعد ذلك عنده طريقتين في التعبير مناسبتين لهذا التكوين النفسيّ، وقد تلحق بهما الكناية أيضًا من حيث هي تعبيرٌ غير مباشَرٍ.**

---

([٤٥]) ديوان اللزوميّات ٢: ٤٠٢

## ثانيًا – التعبير بالتورية

**تعريف التورية:**

**أ– لغةً: التوريةُ: هي الإخفاء والستر. ووريّت الشيء وواريته: أخفيته. وتوارى: استتر. ووريت الخبر: جعلته ورائي وسترته. ووريّت الخبر أورّيه تورية: إذا سترته وأظهرت غيره، ومنه الحديث: كان إذا أراد غزوةً ورّى بغيرها.[٤٦]**

**ب– اصطلاحًا: عرفها الخطيب القزوينيّ في كتابه التلخيص بقوله: "وهي أن يطلق لفظ له معنيان: قريب، وبعيد، ويراد به البعيد منهما".[٤٧]**

**والغاية من التورية إثارة الذهن والاحتياط لإمكان الإنكار عند الحاجة.**

**وقد يكون مفهوم التورية قريبًا من مفهوم الإلغاز حين يقوم الإلغاز على استعمال اللفظ في غير معناه المشهور، ويكون بعيدًا عنها حين يسلك مسلكًا آخر.**

**يميل أبو العلاء إلى التورية والإلغاز في شعره، ولعلّ لذلك علاقةً بخوفه من مواجهة المجتمع وبما كان يعتمل في فكره ونفسه، فهو يذكر ما يريد لا من طريق التصريح غالبًا، ولكنْ من طريق المواراة والتلميح، وقد تمكّنت هذه الطريقة من نفسه حتّى كان لها أثرٌ بارزٌ في شعره ونثره. ونراه يكثر من التورية بحروف الهجاء، نحو قوله:**

**تواصَلَ حبلُ النسلِ ما بينَ آدمٍ وبيني، ولم يُوصَلْ بلاميَ باءُ[٤٨]**

**ورّى باللام عن الشخص وبالباء عن الزواج، والمعنى أنّه لم يتزوّج لكيلا يكون له نسلٌ.**

**ومن هذا السبيل قوله أيضًا:**

**وحرفٍ كَنُونٍ تحتَ راءٍ، ولم يكنْ بِدالٍ يَؤُمُّ الرسمَ غَيَّرَهُ النَّقْطُ[٤٩]**

---

([٤٦]) انظر مادّة (ورى) في لسان العرب وفي تاج العروس. والحديث في صحيح البخاريّ (٢٩٤٧)، وروايته عن كعب بن مالك: "ولم يكن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يريد غزوةً إلّا ورّى بغيرها".

([٤٧]) التلخيص للقزوينيّ ٣٥٩-٣٦٠

([٤٨]) اللزوميّات ٤٢/١.

وَرَّى بالحرف عن الناقة، ثمّ شَبَّهها بالنون في ضمورها. وورّى بالراءِ عن ضارب الرئة، وبالدال عن الإنسان الرفيق، وبالنَّقْط عن المطر. وقد بلغت هذه التوريات في البيت حَدَّ الإلغاز والتعمية في خفائها وإبهامها.

ويسلك المعرّيّ مسلك الشعراء في اتّخاذ الألفاظ التي تحتمل معانيَ مختلفة مادّةً لتورياته الأخرى، نحو قوله:

أرى الفِتيانَ والفتياتِ جمعًا  أصابَتْهمْ بِشِرَّتِها العجوزُ[٥٠]

ورَّى بالعجوز عن السنةالمُجدِبة، وإنّما يُقال للسنة عجوزًا إذا كانت شديدة الجدب.

ونحو قوله:

ركبتَ منها كُمَيْتًا خَرَّ فارسُها  ولَوْ ركبتَ سواها أشهَبًا حَمَلَكْ[٥١]

والكُمَيْتُ والأشهبُ من أوصاف الحصان، ولكنّ المعرّيّ ورَّى بالكميت عن الخمر لأنّه من أسمائها، وبالأشهب عن الماء لأنّه من أسمائه أيضًا.

ويُعَدُّ نثرُه معرضًا للتورية والإلغاز، حتى إنّ أبا العلاء كان يعقد كثيرًا من فقراته وفصوله عليهما، وإنّك لَترى بعض كلامه يغصّ بالتوريات والإلغازات، من نحو قوله:

"ولا أقولُ في الخيّاطين إلّا خيرًا، إلّا أنّ كلّ خيّاطٍ وُجِدَ في الجوامع والمساجد والطرق فقتلُه حلالٌ. وكان في بلدنا قاضٍ دَيِّنٌ يُجيزُ أكلَ لحمِ الخبّاز والخبّازة وأنْ يُطبَخَ باللبنِ والخلّ. وكان في هذا البلد جنديٌّ أبَحُّ، أقامَ أربعينَ سنةً يَدخُل على القادة والأمراء، وهو في ذلك لا يذوق النومَ، وكان ذا وجهينِ. وكان ههنا قَصّابٌ يَذبحُ الضأنَ: صغارَها وكبارَها والأمّاتِ منها والأولاد، وما

---

([٤٩]) سقط الزند: ١٧٧.
([٥٠]) اللزوميّات ٦٢٣/١.
([٥١]) اللزوميّات ٢/ ٢٤٤.

ذَبَحَ خروفًا قطُّ. ومِن زَوْلِ الدهرِ أنّه كان في هذه البلدة جنديٌّ مُحارِفٌ فَنُتِجَتْ فرسُه خروفًا، ونَفَقَتِ الفرَسُ وبَقِيَ الخروفُ....."."[٥٢]

فألفاظه ههنا معهودةٌ مَبْتَذَلَةٌ، مثل: الخيّاط، والخبّاز، والجنديّ، والقصّاب، والخروف. ولكنّ هذا الابتذال يزول عنها عندما لا يقصد المعريُّ منها معانيَها الظاهرة المعروفة، بل يأتي بها على سبيل التورية، فيذهب بها إلى معانيها الخفيّة البعيدة. فالخيّاطُ: ليس صاحب الحرفة المعروفة، وإنّما هو الأرقمُ من الحيّات، يُقال: خاطَ الأرقمُ، إذا وثبَ وثبًا متتابعًا. والخبّاز: ليس من يصنع الخبز، بل هو البعير الذي يَخبِزُ الأرضَ بيديه، والخبّازةُ: الناقة. والجنديّ الأبَحّ: ليس الواحد من العسكر، بل هو الدينار. وليس الخروفُ ابنَ الشاة، بل هو المُهْرُ ابنُ الفرس.

وهكذا كان المعرّيّ يذهب إلى ذكر الأشياء بغير أسمائها المعهودة، ويحمل المألوف على التورية والإلغاز. ورُبّما كان مذهبه هذا جزءًا من مذهب فلسفيّ عامّ قائم على هجر الشائع ونبذ المألوف لشعوره بالتميّز عن مجتمعه، ولاعتداده بثروته اللغويّة وقدرته على استعمال المألوف من الألفاظ بدلالات بعيدة غير مألوفة.

وقد يُورّي بأحكام الفقه وآراء الفقهاء ويُلغز بها، فيأتي بما يُدهش ويُعجِب، نحو قوله:

" وكان محمد بن إدريس الشافعيّ لا يقرب الجامعَ ويبيت في الكنيسة. ومن رأي أبي حنيفة أنّ من قتل حرّاً فلا شيء عليه. ويجوز في مذهبه أن يُطبَخ لحمُ الفقيه، فأمّا الفَرَضِيُّ والنَّحْويُّ فلا يَعرضُ لهما إلّا بخير. ومَنْ بالجزيرة من العرب يأكلون في السنة المجدبة لحومَ الفقهاء .... والقاضي بـ(حلب) عادل منصف، على أنه يجيز أن يُطبَخ المظلومُ بقَديرٍ أو مِرْجَلٍ، ويبيح أن يُضرَبَ خَدُّ المظلومةِ بالفؤوس. وفي دينه أمْرُ الظالمِ بمعونة الظالمة. ويُحِلُّ للخبّاز أن يأكل كبدَ العَجّان وغيرَها من جسده. ويُحبُّ أن يدخل الجنة، على أنّه يُبغض الحُورَ. ولا يلتفت إلى قول الغافِر، ويودُّ أنّه غفر له. ويُطلق لأمّ الولدِ إذا مات عنها سيّدُها ثمّ تزوّجتْ أن تبيع زوجَها من المسلم واليهوديّ والنصرانيِّ".[٥٣]

---

([٥٢]) رسالة الصاهل والشاحج: ٢٢٨.
([٥٣]) رسالة الصاهل والشاحج: ٢٣٠.

والجامعُ: المرأة الّتي جَمَعَتْ عليها ثيابها. والكنيسة: البقعة المكنوسة. والحُرّ: ولدُ الحيّة. والفقيةُ: الفحلُ من الإبل الحاذق بالضِّراب. والمظلومُ: اللبنُ الّذي يُشرَبُ قبلَ أنْ يَرُوب. والمظلومةُ: الأرضُ الصُّلْبَة. والظالِمُ: الّذي يحفرُ الأرض. والعجّان: العير إذا خَبَطَ بيده الأرض. والحورُ: النَّقْصُ. والغافِرُ: الهاذِي. والزَّوْج: النَّمَطُ من الديباج.[٥٤]

وقد يعدلُ إلى اصطلاحات علم العروض فيجعل منها مادّةً لألغازه وتورياته، نحو صنيعه في قوله:

"ولو نزل خميسُهم بحيث يظنُّ المُرجِفون، وهو وافرٌ كاملٌ، لرأيت الطويلَ العاتر مديداً فيهم، والخفيفَ المقبوضَ بسيطاً إليهم. فكثر المتقاربُ عند ذلك بينهم، وسمعوا الهزَجَ والرجَز، فعجَزوا عن الرَّمَل والمضارع له في تلك الساعة، وكان السريعُ والمنسرحُ عندهم محمودَيْن.
وظل جيشُهم مجتَثّاً وعميدُهم مقتضَباً؛ واستغنى بما أَخَذَ منهم الخليلُ وحملَ جهازهم على العَروض، وكثرَ فيهم المقيَّدُ وقلَّ المُطلَق".[٥٥]

وها هو ذا يُفسّر ما ألغز به من الاصطلاحات العروضيّة فيقول: "وهذه الألفاظ ألغزتها عن أجناس الشعر التي رتبها الخليلُ: فأردت بالطويل الرمحَ، وبالمديد الرمحَ إذا مُدَّ إليهم، وهو فَعِيل من: مددت، في معنى مفعول.

وعنيت بالخفيف السيف، لأن السيوف يقال لها: البيض الخفاف. وأوهمت أني أريد الخفيف من الشعر.

وأردت بالمقبوض، الذي قبضةُ الكفّ على قائمه. وأوهمت أني أريد المقبوض الأجزاء، وهو الذي ذهب خامسه الساكن في الأصيل. وليس في الخفيف من الأوزان قبضٌ، فذلك تقوية للإلغاز.

ووصفت الجيش بالوفارة والكمال، لأن في الشعر وزنين يقال لهما: الوافر والكامل.

وعنيت بالبسيط، المبسوط للضرب، لأن في الشعر وزناً يقال له البسيط، وذكرت الهزج وأنا أعني به هزجَ السيوف في الضرب، لأن في الشعر هَزَجاً.

---

([٥٤]) انظر في تفسير هذه الكلمات الصاهل والشاحج: ٣٦٧-٣٦٩.
([٥٥]) رسالة الصاهل والشاحج: ٥٤٧.

وعنيت بالرَّجَز، ارتجازَ القوم في الحرب، لا أنّي خصصتُ به الرَّجَز الذي ذكره (الخليل) دون الرَّجَز على مذهب العرب.

وأردت بالرَّمَل، الرَّمَلَ من السير، كما قال الراجز:

مالَكِ من شيخِكِ إلا عَمَلُهْ

إلّا رَسِيمُهُ وإلّا رَمَلُهْ

وأردتُ بالمضارع له، ما قاربه من السير، ومن ذلك قيل للفعل مضارع، لأنه ضارع الأسماء، أي قاربها.

وعنيتُ بالسريع، الرجلَ الذي يسرع في الهرب.

وبالمنسرح، الذي ينسرح في السير ويمتدّ، من ذلك: سرحتُ الغنمَ إذا أرسلتُها.

وأردتُ بالمجتثّ، الذي قد اجتُثَّ أصلُه، أي قُطع.

وبالمقتضَب، الذي قد اقتُضِبَ من أصحابه، أي اقتُطع. والاقتضاب الاقتطاع.

والمتقارِب، أردتُ به الخطوَ المتقاربَ من الفزع، أو الرجلَ الذي تقارب خَلْقُه، أي انضمَّ وتضاءلَ من الخوف.

فهذه أجناس العروض الخليليّة، قد مضتْ في هذا الفصل على معنى اللغز والتورية.

وأردتُ بالخليل، الفقيرَ. ألغزته عن (الخليل بن أحمد).

وأردت بالعَروض الناقةَ التي لم تكمُل رياضتُها. ألغزتها عن عَروض الخليل قال الشاعر:

ورَوْحةِ دُنيا بين حَيَّينِ رُحتُها أُسيرُ عَروضاً أَو قضيباً أَرُوضُها

وأردت بالمقيَّد، رجلاً قُيّد. وبالمطلَق، من يُطلَقُ من الإسار".[٥٦]

ولعلّ إكثاره من التوريات والألغاز أفضى إلى الإكثار من الغريب في لغته؛ لأنّه يجري وراء الألفاظ الّتي تحتمل معانيَ خفيّةً لا يعرفها إلّا المتمرّسون باللغة المتضلّعون منها. مثال ذلك قوله:

لَوْ كان يَدري أُوَيْسٌ ما جَنَتْ يَدُهُ لاختارَ دونَ مُغارِ الثَّلّةِ العَدَما [٥٧]

لم يُرِدْ بـ(أُوَيْس) اسمَ رجلٍ كما يتبادر أوّلًا، ولكنّه أراد به الذئب، وهو من أسمائه.

ومن هذا القبيل قوله يصف درعًا:

---

([٥٦]) رسالة الصاهل والشاحج: ٥٤٧ ــ ٥٥٠.

([٥٧]) اللزوميّات ٢: ٤٢٥. المُغار: الإغارة. الثَّلّة: القطيع من الغنم.

**إذا قارَبَتْها للرِّمـــــــــــاحِ ثعـــالِبٌ ضَغَتْ، فتنادَى القومُ: تلكَ الهَجارِسُ[٥٨]**

**فالثعالبُ هنا ليست هي الحيوانات المعروفة، ولكنّها ثعالب الرّماح أي أطرافها التي تحت الأسنّة. لقد وجد المعرّيّ في التورية والإلغاز مجالًا رحبًا لاستعمال الغريب الذي كان يحفظه، وقد كان استعمال هذا الغريب مظهرًا من مظاهر الثراء اللغويّ لدى المعرّيّ، وكان في الوقت نفسه يوافق ميله العام إلى الغموض في التعبير، ولعلّه كان مظهرًا من مظاهر التباهي المعرفيّ أيضًا.**

**ومن الإنصاف أن نشير أخيرًا إلى أنّ أبا العلاء قضى شطرًا من عمره يُملي علمه ومؤلّفاته على تلاميذه، ممّا عزّز النزعة التعليميّة في نفسه، فلا يبعد أنّه كان يتوسّل بالتورية والإلغاز للوصول إلى غريب يشرحه أو حكمٍ نحويّ يوضّحه أو اصطلاحٍ عروضيّ يجلوه ويكشفه.**

(٥٨) سقط الزند: ٣١٥. ضَغَتْ: صوّتَتْ كأصوات الثعالب. الهجارس: الثعالب.

**خاتمة:**

**عمدتُ فيما أوردتُه في هذه المقالة إلى الوقوف على ظاهرتين لفتتا نظري في تعبير المعرّيّ، هما الكناية والتورية، وأمّا الظاهرة الأولى فهي من علم البيان ولها مساسٌ بالتصوير الفنّيّ، وأمّا الثانية فهي من علم البديع ولها مساس بتحسين الكلام. وقد انتهت هذه الدراسة إلى النتائج الآتية:**

**١ – كثرة الكنايات والتوريات في لغة التعبير عند أبي العلاء المعرّيّ.**

**٢ – تعدُّد الكنايات عن الاسم الواحد.**

**٣ – توزُّع الكنايات في نوعين: كنايات موروثة، وكنايات مُبْتَكَرَة.**

**٤ – اتّخاذ الكنايات الموروثة مادّةً للشرح والتفسير والاستشهاد لها من الشعر الفصيح ومن كلام العرب.**

**٥ – اتّصاف كناياته المبتكَرة بالإيجاز والوضوح والإيحاء الغنيّ.**

**٦ – اتّكاؤه في بناء قسم من كناياته المبتكَرة على ثقافته النحويّة والصرفيّة والعروضيّة.**

**٧ – دوافعه إلى الإكثار من التعبير بالكناية هي: قدرته على التصوير، واعتداده بثقافته اللغويّة وبمقدرته على توسيع اللغة بإضافة الجديد، وميلُه إلى التلميح دون التصريح.**

**٨ – كلفُه بالتورية مرتبطٌ بتوجُّسه من مواجهة المجتمع بما كان يعتمل في فكره ونفسه.**

**٩ – تنوّع توریاته ما بين التورية بالكلمات ذات المعاني المتعدّدة، والتورية بأسماء حروف الهجاء، والتورية باصطلاحات الفقه وأحكامه، والتورية باصطلاحات النحو والصرف والعَروض.**

**١٠ – الإكثار من التورية أفضى أحيانًا إلى الإكثار من غريب الكلام.**

**١١ – كثرة الكنايات والتوريات والغريب مرتبطةٌ ارتياطًا وثيقًا بالنزعةُ التعليميّة لدى المعرّيّ.**

**هذا هو جهدُ المُقِلّ. ولستُ أدّعي أنّي بلغتُ الغايةَ فيما ذكرتُه، بل ما يزال الأمر مُحتاجًا إلى مزيد من التبصّر والتأمُل. وثمّة ظواهر أخرى في تعبير المعرّيّ لم أعرض لها وهي جديرةٌ بالدراسة وتوجيه الأنظار إليها. وأسأله تعالى أن ينفع بما قدّمتُ، وأنْ يقع ما بذلتُ الموقعَ الّذي أريد من خدمة العربيّة وأعلامها. والله من وراء القصد، والحمدُ لله الّذي بنعمته تتمّ الصالحات.**

## المصادر والمراجع


- الإبانة في اللغة العربيّة: لسلمة بن مسلم العَوْتَبي الصُّحاريّ (ت في أواخر النصف الأوّل من القرن الخامس الهجريّ)، تحقيق الدكتور عبد الكريم خليفة وزملائه، نشر وزارة التراث القوميّ والثقافة، مسقط –سلطنة عمان، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
- تاج العروس من جواهر القاموس: للمرتضى الزَّبيديّ (ت ١٢٠٥ هـ)، تحقيق مجموعة من المحقّقين، إصدار المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٠م.
- تعريف القدماء بأبي العلاء: إعداد مجموعة من الأساتذة، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٤٤م.
- التلخيص في علوم البلاغة: لجلال الدين القزوينيّ (ت ٧٣٩ هـ)، ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقيّ، دار الفكر العربيّ.
- ديوان سقط الزند: لأبي العلاء المعرّيّ (ت ٤٤٩هـ)، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠هـ.
- ديوان اللزوميّات: لأبي العلاء المعرّيّ، دار صادر، بيروت.
- رسالة الصاهل والشاحج: لأبي العلاء المعرّيّ، تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥م.
- صحيح البخاريّ: لمحمّد بن إسماعيل البخاريّ (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق محمّد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- الفصول والغايات: لأبي العلاء المعرّيّ، تحقيق محمود حسن زناتي، القاهرة، ١٩٣٨م.
- لسان العرب: لابن منظور محمّد بن المكرم (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م.
- لسان الميزان: لابن حجر العسقلانيّ (ت ٨٥٢ هـ)، تحقيق عبد الفتّاح أبو غدّة، دار البشائر الإسلاميّة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.
- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: لعبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العبّاسيّ (ت ٩٦٣ هـ)، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت.
- معجم الأدباء: لياقوت الحمويّ (ت ٦٢٦ هـ)، تحقيق إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.